# التطبيع مع العدو الصهيوني

أ. د. عبد الستار قاسم

رفض العرب الغزو الصهيوني ورفضوا الكيان الصهيوني عند قيامه وضربوا حوله ستاراً على اعتبار أنه عدو مغتصب لفلسطين ومعتد آثم على الشعب الفلسطيني والأمة العربية ككل. رفضوا التعامل معها بأي شكل من الأشكال وفي كافة المجالات وتوعدوا بتدميره وطرد الصهاينة المهاجرين المستوطنين. لقد عزلوا الكيان تماماً عن محيطه الجغرافي واستمروا في التحريض ضده وتأجيج مشاعر الكراهية والبغضاء في سبيل حشد رأي عربي عام متحفز للانقضاض والتحرير. ذلك لأن الكيان غير شرعي ويمثل أبشع أنواع العدوان والاستهتار بالإنسانية وبالعرب. ويجب أن يكون رفضه مبدئياً وقاطعاً وشاملاً.

وبالرغم من اللهيب الإعلامي ضد الكيان الصهيوني والمشاعر الملتهبة ضده على مستويات عدة، إلا أن أنظمة عربية كانت تقيم معه علاقات سرية محصورة في أسرة حاكمة وأعوانها. بل ان عائلات عربية أقامت علاقات طيبة مع الحركة الصهيونية وبعض رموزها البارزين مثل جولدا مئير، رئيسة وزراء صهيونية سابقة، وسهلوا لهم عملية شراء الأراضي خاصة في شرقي الأردن. ولم يعد سراً أن أسراً عربية حظيت بدعم استعماري لإقامة إمارة أو مملكة مقابل إقامة علاقات مع الصهاينة والدفاع عنهم وعن كيانهم مستقبلاً ضد التحديات العربية.

لم تكن الحكومات العربية إجمالاً جادة في طروحاتها التحريرية في مراحل الخمسينات والستينات حيث ظهر فيما بعد أن استعداداتها العسكرية لم تكن بمستوى الخطاب الإعلامي. بل أن تلك الحكومات بخاصة المجاورة للكيان الصهيوني كانت تقف حارسة على الحدود فمنعت تشكيل التنظيمات العسكرية وراقبت الحدود بهدف منع كل من أراد التسلل لغرض القيام بعمل عسكري أو عدائي للصهاينة. كان النظام الأردني أميناً في الحراسة وكبح رغبات التحرك نحو بناء يتناسب مع مهمات التحرير، أما النظام المصري فقد تعهد عقب حرب عام 1956 بمنع العمليات الفدائية وأغلق الحدود بصورة كاملة، وكان عدد من زعماء لبنان بخاصة كميل شمعون الذي شغل منصب رئيس الجمهورية صديقاً غير معلن لإسرائيل ومناهضاً للطموحات والآمال العربية في التحرير والعودة. ولم تكن دولة المغرب بعيدة عن علاقات رسمية ودية مع الكيان ولكن من تحت الطاولة.

لم يكن الشارع العربي واعياً للعجز الكبير الذي كان يحيق بالحكومات ولا بالعلاقات الطيبة التي أقامتها أنظمة عربية مع الكيان الصهيوني سراً، ولا بما ينطوي عليه العجز والكذب السياسي من سياسات عربية مستقبلية حيال الصهاينة. جاءت حرب عام 1967 ليرى الجمهور العرب أن ما كانت تقوم به الأنظمة العربية لا يرتقي إطلاقاً إلى مستوى الكلام الذي كانت تصف به الكيان الصهيوني وتتوعده. لقد لحقت بالعرب هزيمة نكراء بشعة لا بد أن تؤثر مستقبلاً على العلاقات العربية ــ الصهيونية، وبالتأكيد لصالح المنتصر.

وقد كان التهتك الأخلاقي العربي الرسمي واضحاً في قرارات مؤتمر القمة العربي في الخرطوم وفي قبول قرار مجلس الأمن 242. وقرر القادة العرب في مؤتمرهم الثلاث لاءات وهي لا صلح مع الكيان الصهيوني

ولا تفاوض معه ولا اعتراف به، لكنهم قبلوا قرار مجلس الأمن الذي يدعو إلى التفاوض والاعتراف المتبادل والمحافظة على المنعة الإقليمية لكل دولة في المنطقة واحترام سيادتها وفتح الممرات المائية أمامها.

لقد ناقضوا أنفسهم في غضون أشهر، واستمروا في خطابهم العالمي المتناقض مع الخطاب المحلي المبني على قيم التضليل والاستهانة بعقول الناس وآمالها وتطلعاتها. أخذوا يسعون نحو حل سلمي مع إسرائيل على مستوى النشاط العالمي، واستمروا في الإصرار اللفظي على رفض الكيان الصهيوني ورفض التعامل معه على مختلف الصعد.

على المستوى العربي الجماعي والمتمثل في الجامعة العربية استمر العرب في مقاطعة الكيان الصهيوني، واستمرت لجنة مراقبة المقاطعة في نشاطها الهادف إلى عزل الصهاينة اقتصادياً على المستوى العالمي وإضعافه. وقد حققت هذه اللجنة نجاحاً لكنها لم تكن مخولة بأكثر من النطاق الاقتصادي الذي يمنع الاتجار مع الكيان ومقاطعة الشركات التي تقوم بالتعامل الاقتصادي مع الصهاينة. لكنه لوحظ أن اللجنة لم تصّعد إجراءاتها بحيث تشمل الدول التي تعاملت مع الصهاينة.

استمر النظام الأردني في علاقته مع الصهاينة على الرغم من الهزيمة وطرد الأردن من الضفة الغربية، واستمر راس النظام بالقيام بزيارات للكيان ولقاءات مع قادته. فضلاً عن أن أقطاب النظام أخذوا بالتعامل الاجتماعي والاقتصادي والسياحي مع الكيان الصهيوني حتى أن خال الملك كان أول من اشترى التجهيزات الزراعية من المصانع الصهيونية. اختلف الأمر بالنسبة للنظام المصري الذي أخذ يجهز جيشه للقتال لكن دون أن يرفض إمكانية إقامة سلام مع الصهاينة وقد كان في قبوله لقرار مجلس الأمن ومبادرة روجرز دليلان على ذلك. أما سوريا فقد توقفت عند الاعتراف بقرار مجلس الأمن بعد سنتين من صدوره ولم تتقدم خطوة نحو أرضية يمكن أن يرتكز عليها التطبيع إلا عام 1991 عندما عقد مؤتمر مدريد.

لم تكن منظمة التحرير الفلسطينية بعيدة عن التناقض بين المواقف العلنية والخطوات السرية. لقد أعلنت المنظمة عبر ميثاقها وعبر قرارات المجلس الوطني الفلسطيني رفضها للمقررات الدولية وتمسكها بتحرير فلسطين كاملة، لكنها كانت تسعى في المحافل المختلفة من أجل أن تجد لها مكاناً في أي مفاوضات سلمية يمكن أن تتبلور مستقبلاً مع إسرائيل. وقف رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أمام الجمعية العامة عام 1974 مخاطباً العالم بأنه يحمل غصن زيتون ويرغب في إقامة السلام، واصدر المجلس الوطني الفلسطيني برنامج النقاط العشرة في ذات العام والذي تضمن تحولاً نحو إقامة دولة فلسطينية بدل تحرير فلسطين. انطوى هذان النشاطان على دخول معترك ديبلوماسي وسياسي له مواصفاته المختلفة عن مواصفات معترك المقاومة الهادف إلى التحرير. فمن يخاطب الأمم المتحدة عبر ردهاتها يقبل بالتحرك من خلال مقرراتها، ومن يركز على دولة في أي مكان من فلسطين يتم تحريره لا بد أن يضع في حسابه التفاهم مع دول عدة ومنها الكيان الصهيوني.

انطوى سعي العرب ومن ضمنهم منظمة التحرير إلى الوصول إلى حل سلمي مع الكيان الصهيوني على افتراض ضمني، منطقي وحتمي، مفاده أن إقامة علاقات اعتيادية مع الصهاينة أمر لا مفر منه وأنه مرتبط مباشرة بالاعتراف المتبادل عندما يتم. وحيث أن سعي العرب عامة ومنظمة التحرير خاصة تركز على قرارات الأمم المتحدة أو على ما يسمونه الشرعية الدولية فإنه كان من المتوقع منذ سنوات طويلة أن يتم الاعتراف

المتبادل، وأن تقبل الأنظمة العربية إسرائيل كأمر واقع معترف به وله الحق في البقاء على الأرض العربية المغتصبة، وعليه لا يمكن إلا إقامة علاقات اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياحية بحيث تصبح الدولة المغتصبة جزءاً لا يتجزأ من المنطقة وتعيش فيها دون منغصات عدائية أو حربية أو مجرد رافضة.

من زاوية الصهاينة، كان واضحاً عبر السنوات أن تعريفهم للسلام في المنطقة يعني إنهاء حالات الحرب والعداء والاعتراف المتبادل وإقامة علاقات اعتيادية مع العرب بحيث تصبح إسرائيل جزءا من المنطقة. فقد سيطر على الصهاينة تفكير الحرب من أجل فرض الذات على العرب وإجبارهم على التخلي عن تفكيرهم بإلحاق هزيمة عسكرية بإسرائيل وطردها من المنطقة. أي أن الحرب بالنسبة لهم لم تكن إلا مجرد وسيلة لإقناع العرب بضعفهم وعجزهم وأنه لا سبيل لهم لتدمير إسرائيل وإنما فقط للتفاهم معها والاعتراف بها والسير نحو تطبيع العلاقات. وصل العديد من الزعامات العربية إلى هذه القناعة لكنه كان من المهم أن يصل الشعب العربي إلي ذات القناعة من أجل تسهيل مهمة القيادات في القيام بما رغبت في القيام به منذ زمن. وصول الشعوب العربية إلي ذات القناعة مرتبط حسب الفكر الصهيوني، بتكرار الهزائم بحيث يصبح الفرد العربي عنصراً داعماً لزعيمه من أجل القبول بالهزيمة والاستسلام. أي لابد من دحر العربي إلى زاوية بحيث لا يرى بديلاً للاستسلام ومن ثم التطبيع مع إسرائيل.

ساد التبرير القائم على هذه الرؤيا الساحة العربية بعد انعقاد مؤتمر مدريد خاصة على الساحة الفلسطينية حيث انطلق المؤيدون للمنحى السلمي لمنظمة التحرير يبشرون أنه لا توجد بدائل، وأخذوا يواجهون معارضيهم بسؤال ما هو البديل.

## أي أن التطبيع:

**أولاً:** هدف صهيوني حيث أنه الضمان الأفضل لتجنيب إسرائيل استمرار العداء ولقبولها كدولة عادية من دول المنطقة. من الممكن أن تنتصر إسرائيل عسكرياً على العرب مراراً، لكن ذلك بحد ذلك لا يكفي لضمان أمنها. أما التطبيع فكفيل بتغييب الروح العدائية وبتجنيد الجيوش والمخابرات العربية للدفاع عن أمنها ضد الرافضين والمتمسكين بالتحرير، والطريق إليه هو القوة العسكرية التي تذل الشعب العربي إلى درجة القبول بالاستسلام ومن ثم بالتطبيع.

**ثانياً:** قامت سياسات أغلب الأنظمة العربية على نوايا القبول بإسرائيل وإقامة سلام معها وذلك من خلال:

1 - عدم الاستعداد للملاقاة العسكرية وإيهام الشارع العربي بقدرة عسكرية تتناسب مع تطلعات العربي نحو التحرير.
2 - تلقي الهزائم المتكررة وابتلاعها من خلال تبريرات واهية وغير منطقية ومن خلال قمع العربي بوساطة الأجهزة الأمنية التي أثبتت عداء سافراً لكل ما هو عربي.

**ثالثاً:** فتح القادة العرب وإسرائيل باب العلاقات السياسية علناً وأمام الناس جميعاً عام 1991، وبذلك كان رؤساء الدول وقادة الشعوب أول السائرين في التطبيع علناً بعد أن كان بعضهم قد سار فيه سراً.

على الرغم من ذلك من المتوقع أن تبقى مسألة دفع الشعوب نحو التطبيع متأرجحة صعوداً وهبوطاً وذلك تبعا لعوامل عدة منها مدى الحرية التي يتمتع بها العربي في حشد الطاقات ضد التطبيع ، ومدى تجاوب إسرائيل في حفظ بعض ماء الوجه للقيادات والزعماء من خلال طاولة المفاوضات، وعلى تطور الأوضاع السياسية على الساحة العربية عامة، وعلى الساحة الفلسطينية بصورة خاصة .

## تعريف التطبيع

تأتي كلمة التطبيع المستعملة حاليا ضمن بعد سياسي_اجتماعي مترجمة عن الكلمة الإنجليزيةNormalization والتي إن توخينا دقة أكبر تعني الاعتياد. وهي باختصار تعني تحويل السلوك الطارئ سواء كان ذهنيا أو نفسيا أو اجتماعيا إلى عادة بحيث يظهر وكأنه جزء لا يتجزأ من الحياة الاعتيادية العامة والخاصة للإنسان. وبهذا المعنى يمكن قبول كلمة تطبيع على اعتبار تحويل السلوك الطارئ أو الجديد إلى ما يشبه الطبيعي فيصبح جزءا لا يتجزأ من حياة الإنسان. السلوك غير الطبيعي لا يمكن أن يصبح طبيعيا لكنه يمكن أن يصبح اعتياديا وكأنه لا ينفصل عما هو طبيعي. أي في العلاقة مع الصهاينة يعني التطبيع إقامة علاقات تجنح نحو الطبيعي الذي يسود علاقة الناس بحيث تصبح اعتيادية في القبول والتعامل المتبادلين.

أما في التراث العربي، خاصة في تراث أهل الشام، ترد كلمة تطبيع بمعنى الترويض بحيث يصبح السلوك الطارئ أو الجديد مقبولا لدى السيد أو صاحب اليد الطولى. وبهدف البعد عن التجريح أبتعد عن إعطاء تفصيل حول هذا التراث. لكن الافتراض بأن التطبيع عبارة عن وصف لعلاقة سيد بمسود يبقى قائما والتي من خلالها يطوع المسود نفسه (أو يجبر على تطويع نفسه) للسيد ليتحول إلى أداة تخدم مصالح الآخرين. وغالبا ما يتم استعمال وسائل الترغيب والترهيب من أجل استقامة العلاقة بالطريقة التي يراها الأقوى مناسبة.

إذا تفاعل المعنى الأول مع الثاني نعرف التطبيع على أنه علاقة اعتيادية أو جانحة نحو الطبيعي بين طرفين متفاوتي القوى بحيث يذلل الأضعف لخدمة مصالح الأقوى.

من خلال استعراض مراحل الصراع العربي الصهيوني نجد أن الكيان الصهيوني هو الذي أصر على تطبيع العلاقات مع العرب، وأن سياسته نحو الحرب أو نحو السلام تركزت أساسا على التطبيع باعتباره أنه الضمان الرئيس والأساسي لبقاء إسرائيل في المنطقة. أرادت إسرائيل إقامة علاقات اعتيادية مع العرب بحيث

يقبلها العربي على أنها جزء من المنطقة ولا يضع وجودها أو حقها فيه موضع تساؤل. العلاقات الاعتيادية لها درجات صعود وهبوط لكنها تبقى تدور ضمن منطق الحياة السياسية وليس ضمن منطق عدائي يستهدف فيه طرف وجود الطرف الآخر. التسليم بوجود إسرائيل يكفيها هاجس الزوال ويصب ضمن منطق دفاع الغير عن وجودها واستمرارها ويضمن لها الاطمئنان بأن العرب لن يحشدوا التاريخ القديم لصياغة سلوكهم الحالي، ويتحول الماضي إلى مجرد ذكريات لا سبيل لها للتدخل في الحاضر أو المستقبل.

إسرائيل كانت دائما الأقوى وحاولت من خلال قوتها تطويع العرب فألحقت بهم الهزائم المتكررة حتى باتوا غير قادرين على متابعة ما كانوا يدعون إليه. ومع بعض المحفزات الترغيبية تحول العرب تدريجيا من الرفض المطلق إلى التردد ومن ثم إلى القبول التدريجي حتى وصلنا إلى ما نحن عليه الآن من مستويات تطبيعية متنوعة. صحيح أن الاندفاع التطبيعي يتأرجح لكن ليس ضمن منطق الرفض ولكن ضمن منطق القبول.

# التطبيع السياسي

تطبيع العلاقات مع إسرائيل لا ينطوي على مجرد إقامة علاقات اعتيادية معها كما هي العلاقات الاعتيادية بين دول العالم غير المتنازعة، وإنما يدخل في عمق الذات العربية والإسلامية وله انعكاسات ذاتية وجماعية ذات صبغة حضارية وتاريخية. إنه ليس تطبيعاً بمعنى إقامة علاقات لم تكن موجودة أصلاً كإقامة علاقة بين مصر ونيبال أو بين دول الجزيرة العربية وبيرو، وإنما بمعنى مراجعة تاريخ طويل وإعادة النظر في أبعاد تاريخية وحضارية ودينية. وهو لا ينطوي على مجرد مصالح متبادلة أو مشتركة تعود بمنافع مادية على طرفين، وإنما يشمل الوعي بالذات والقراءة العربية للتاريخ والهوية والأصول.

التطبيع مع الكيان الصهيوني غير ذي بعد حاضري آني يخلو من الامتدادات النفسية ومقومات الشخصية والهوية، ولا هو مجرد شعار مرحلي بهدف تخطي مرحلة العجز العربي حتى تنفرج الأمور وتتغير الأحوال، وإنما يتغلغل في وعي الإنسان بعجزه لتجذيره كحقيقة لا يمكن تجاوزها أو التغلب عليها. وكأنه يخاطب العقل العربي والنفسية العربية قائلاً أن العجز قد أحاط بالعرب وهو واقع بل قدر لا مفر منه وأنه لا مجال أمامهم سوى الإستسلام له وتوريثه لأبنائهم ليصبح مكّوناً تربوياً لا تتمرد عليه الأجيال. إنه الترجمة العملية لترسيخ الهزيمة في النفس العربية بما يتضمنه ذلك من شروط القبول غير المتردد بالهزيمة. بعبارة أخرى، إنه استدخال للهزيمة بحيث لا تشعر النفس بارتياح في أجواء غير أجواء الهزائم والاندحارات.

التطبيع بالنسبة لإسرائيل لا يعني مجرد إقامة علاقات تجارية أو مفوضيات أو سفارات، وإنما من المفروض أن يشمل مراجعة لمفاهيم الصراع ولفهم التاريخ والأسس الدينية، الخ. أي يجب أن يكون عملية قلب جذرية للنظرة العربية والإسلامية تجاه إسرائيل واليهود بحيث ينشأ عربي مسلم جديد بمفاهيم جديدة تنسف كل ما سبق بخلفياته وحيثياته. وإن لم يكن التطبيع كذلك فإن جذور بروز الصراع من جديد تبقى كامنة حتى يحين وقت انبثاقها. فإذا كان للصراع أن يدفن نهائياً فإنه لابد من نسف الأصول والمنابت وأسس تشكيل الشخصية العربية الإسلامية. وعليه فإن التطبيع يجب أن يكون منهاجاً حياتياً جديداً ومبرمجاً بطريقة مؤثرة تخلق قيماً تربوية وأخلاقية جديدة متناسبة مع المرحلة وتشكل أساس المستقبل.

## آلية الوصول إلى التطبيع السياسي

ضمن هذا الإطار العام رأت إسرائيل أن الضمان الأهم لاستمرار وجودها هو أن تكون مقبولة من قبل العرب والمسلمين كجزء لا يتجزأ من المنطقة وأن يتم التعامل معها كدولة لها الحق في الوجود والعيش بسلام وفي علاقات اعتيادية مع الآخرين كأي دولة أخرى في المنطقة. ولهذا عملت إسرائيل منذ قيامها نحو البحث عن

وسائل انفراج مع العرب وإقامة علاقات غير عدائية بل واعتيادية معهم. وقد تركز جهدها على الشارع العربي، على الإنسان العربي العادي لأنه هو الباقي وليس الحاكم. رأت إسرائيل أن قبولها كدولة في المنطقة من قبل القادة والحكام والزعماء العرب لا يكفي كضمان لاستمرارها بسبب عدم استقرار الحكم في الوطن العربي وعدم قدرة القيادات على تحقيق استمرارية بدون قوة المخابرات والبنادق والسجون. القبول من قبل هؤلاء يتهاوى مع تهاوي زعاماتهم وحكوماتهم، ومن السهل أن ينقلب القبول إلى رفض إن لم يكن الشعب قد سار في ركب القبول.

حتى تكون إسرائيل مقبولة كجزء لا يتجزأ من المنطقة ومعترفاً بها هكذا فإنه لابد من توفر القبول الشعبي بها. لم يكن الأمر سهلاً ولا بد من تحقيق اختراقات تجعل الاحتكاك بينها وبين مختلف فئات الشعب العربي ممكناً. وفي ظل العداء الواسع لإسرائيل في الوطن العربي لم تكن وسائل الإقناع العادية متوفرة ولم يكن أمامها سوى وسائل العنف والتدمير. وهي بذلك كانت بحاجة إلى أمرين: قادة عرب لا يتمتعون بغيرة على أمتهم وشعوبهم ومن الممكن تسييرهم وهزائم عسكرية تلحق بالعرب تؤدي إلى احباطات متراكمة وترسخ فكرة الاستسلام. هذا بالتحديد ما دفع رئيس وزراء إسرائيل الأسبق بن غوريون في التفكير في دفع رشوة مالية كبيرة لأي زعيم عربي مجاور حتى يشن حرباً على إسرائيل فيهزم فتستوعب الجماهير الدرس وتقرر أن لا فائدة من البحث عن أسباب القوة لمحاربة إسرائيل.

لم تكن أمام إسرائيل مشكلة كبيرة في إيجاد الزعماء المناسبين من خلال عدة وسائل تتمثل أولها في أن الاستعمار البريطاني والفرنسي لم يغادر المنطقة دون أن ينصب بعض الموالين للدول الغربية على حساب المصالح العربية. وأما من لم يربطه الاستعمار مباشرة قبل أن يغادر كان من الممكن العمل عليه بوسيلتي المال والنساء واللتين ثبتت فعاليتهما في تحييد العديد من القادة العرب وفي تجنيدهم أيضاً. أما من استطاع أن يفلت من زمام المصايد بقي فريسة لحالة التخلف المتميزة بضعف المستوى المهني والأخلاقي وبالتكاسل والعشائرية وغياب العقلية العلمية والاستزلام. فمن لم يكن مصيبة على الأمة عمداً واستقطاباً كان كذلك تخلفاً. لهذا لم يكن العرب على مستوى الاستعداد لحرب متكافئة وكانت الغالبية الساحقة من معاركهم عبر السنين هزائم مريرة، ولم يتوقف مسلسل الهزيمة إلا بحزب الله الذي حقق انتصاراً ساحقاً على إسرائيل عام 2000.

من المفروض، حسب المنطق التاريخي العام، أن التحدي يولّد التّحدي وأن يبحث المهزوم عن أخطائه ليتلافاها ويراكم أسباب القوة حتى يدحر عدوه. لكن الهزائم على المستوى العربي كانت ذات مفعول آخر وهو رفع وتيرة الإحباط أو زيادة حدة مشاعر اليأس تمهيداً للتسليم بالأمر الواقع وقبوله على علاته. السبب في ذلك أن الزعماء العرب الذين لم تسقطهم الهزائم ولم تتحرك ضدهم الشعوب اتبعوا سياسات داخلية حرمت الشعوب من العمل نحو تنفيذ رغباتها وإعادة ترتيب صفوفها بهدف الدفاع عن الذات ودحر المعتدين. سخر قادة العرب أجهزتهم الأمنية وقوى الأمن لقمع الإنسان العربي، واستعملوا الأموال لشراء الضمائر واستعباد الناس وأقاموا إدارات ينخرها الفساد الذي فتت الكثير من الروابط المجتمعية والسياسية. لقد عاثوا في الأرض العربية الفساد والدمار

وأحالوا العربي إلى حطام يصعب تجميعه. وبذلك دحروه إلى زاوية لا يقوى فيها على قول "لا" وأصبحت معها الموافقة على كل المحرمات أمراً وارداً. وإذا تبقى هناك من يمكن أن يعارض فالسجن في انتظاره أو القتل دون أن يأسف على وضعه أناس كثيرون.

أوصلنا القادة والحكام والزعماء إلى تلك النقطة التي وصلوا إليها منذ زمن بعيد ولم يكونوا قادرين على البوح بها وتبنيها علناً وهي نقطة الصلح مع إسرائيل أو قبولها. قال هؤلاء القادة نعم للتفاوض وللاعتراف المتبادل وخرج الناس خاصة في فلسطين المحتلة/67 إلى الشوارع يهتفون ويرقصون احتفالاً بالانتصار الذي حققوه في مدريد وبعد ذلك في أوسلو. لقد عمل اليأس معوله في نفوس وعقول الناس إلى درجة أنهم رقصوا لما وصفوه عبر سنين على أنه خيانة ومحرمات لا يمكن الإقدام عليها.

المعنى أن إسرائيل اعتمدت على آليتين في بث اليأس والإحباط وهما صنع قيادات عربية قابلة للهزيمة وآلية عسكرية خاصة بها تهيمن بها على المنطقة. وبدورهم اعتمد القادة العرب على آليتين وهما التمشي اللفظي مع تطلعات الجماهير وتأهيلها للتفتت والهزائم من خلال سياساتهم الداخلية والخارجية. تكامل الدور الإسرائيلي مع الدور القيادي العربي وانتهت الأوضاع إلى حيث أرادت إسرائيل وهو الجلوس على طاولة المفاوضات لصنع سلام معها يقوم على الاعتراف المتبادل وفتح الأبواب أمام العلاقات الاعتيادية.

### مفهوم التطبيع السياسي

يتحدث العديد من الخبراء والمختصين والمهتمين عن التطبيع مع إسرائيل مركزين على السمات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، مستثنين في كثير من الأحيان التطبيع السياسي. على أن التطبيع السياسي هو الأكثر أهمية وهو البوابة الرئيسة التي تدخل من خلالها كل أنواع التطبيع. إنه يشكل التأشيرة الرسمية أو الإذن المسبق لإقامة مختلف أنواع العلاقات لأنه ممارسة سياسية على المستويات الرسمية العليا والتي يقوم بها الحاكم أو المسؤول الأول والحكومة وأعضاؤها والأجهزة الأمنية وغيرها. إنه الممارسة الرسمية التي يقوم عليها النظام علناً ويحميها ويدفع باتجاهها ويجند القوى الممكنة في سبيل حمايتها واستمرارها.

يبدو أن الناس يقفزون في تحليلاتهم عن هذا النوع من التطبيع ليس لأنهم لا يرونه تطبيعاً وإنما لأنهم يخشون السلطان ويخافون من توجيه الانتقادات ضده ويفضلون البقاء خارج السجن أو خارج دائرة الانتقام السلطاني. والحقيقة تبقى قائمة واضحة أمام الجميع وهي أن القيادة السياسية العربية هي التي فتحت أبواب العلاقات مع إسرائيل وهي الحريصة على تطويرها وانتشارها لتشمل مختلف البلاد العربية.

لم يكن من الممكن أن يصافح مسؤول عربي مسؤولاً صهيونياً قبل أن قام القائد بفعل ذلك، ولم تمتد المصافحة إلى طاولة المفاوضات إلا بعد أن أذن الحاكم بذلك. فتح الحاكم أو القائد باب المصافحة والجلوس معاً على

الطاولة وتبادل الأحاديث السياسية ثم تطورت الأمور إلى أحاديث عامة وتبادل ابتسامات ونكات وضحكات وتجوال معاً في حدائق أو في ردهات الفنادق، الخ. ثم تطورت الأمور إلى اتفاقات واعترافات متبادلة وتبادل علاقات واتصالات مكثفة وهكذا، ثم تعاون أمني وملاحقة مناضلين وزجهم بالسجن، وهكذا.

المفاوضون هم أكثر الناس تطبيعاً مع العدو على الرغم من أنهم يتحدثون أحياناً ضد التطبيع. إنهم يشجعون الناس على الاحتذاء بهم والقيام بالنشاطات المنسجمة مع الاتفاقات مع إسرائيل ومع الصلح معها والاعتراف بحقوقها. هذا أمر راسخ أصلاً في المهمة التفاوضية التي تعني المصالحة والقبول بالآخر. مفاوضات العرب مع إسرائيل ليست مفاوضات القوي مع الضعيف أو الند للند وإنما مفاوضات الضعيف مع القوي والذي لابد أن يقبل بالشروط التي تفرضها معادلة القوة. أي أن العرب لم يتوجهوا إلى طاولة المفاوضات بهدف انتزاع الحقوق الوطنية العربية وإنما بهدف المصالحة والتنازل أو بهدف الحصول على ما يمكن أن تقدمه إسرائيل. لقد قامت المفاوضات على مبدأ الاعتراف بإسرائيل ولإقامة سلام معها، وهذا لن يتم بدون التنازل عن بعض الحقوق وبدون نية مسبقة لتطبيع العلاقات معها. ولهذا لا يمكن إلا أن نضع الحكام والقادة العرب والفلسطينيين على قائمة المطبعين الذين يفتحون أبواب التطبيع وتحقيق آمال إسرائيل وطموحاتها وأطماعها في إحداث ثغرات تدخل من خلالها إلى ثروات ومقدرات الأمة.

من هنا أخلص إلى تعريف التطبيع السياسي على أنه إقامة أو العمل على إقامة علاقات اعتيادية على المستوى الرسمي مع العدو بخاصة على مستوى الحكام والقادة والرؤساء والملوك وبما يملكه هذا المستوى من إمكانات ووسائل لنشر هذه العلاقات على كافة مستويات النشاط العام. هذا تطبيع يتم على أيدي القيادات السياسية، أي القيادات التي تمثل الناس وتدير المؤسسات وتسن القوانين وتتبنى سياسات داخلية وخارجية تؤثر مباشرة في أوضاع الناس المختلفة وتؤثر في مواقفهم الذهنية وفي سلوكياتهم وطرق تعاملهم مع المستجدات المادية والمعنوية.

وفيما يلي بعض المعالم البارزة في الآثار التي يتركها أصحاب التفاوض على الساحتين العربية والفلسطينية:

## مسؤولية نشوب الصراع

أصرت إسرائيل في دعايتها الإعلامية ومواقفها السياسية عبر سنين طويلة على تحميل العرب مسؤولية نشوب الصراع في المنطقة واستمراره لفترة طويلة. فقد تمسكت بمقولة حقها التاريخي في ما تسميه أرض الميعاد وأرض إسرائيل التاريخية مستندة في ذلك على نقطتين: الوعد الإلهي بتمليك الأرض لبني إسرائيل وإقامة دولة يهودية في عهد الملكين داود وسليمان. وقد وجدت المقولة في الغرب آذاناً صاغية لأسباب مختلفة ووجدت الدعم المتناسب مع الطموحات الصهيونية. وبما أن الله قد منح العبرانيين هذه الأرض فإنها تبقى عبر التاريخ ملكاً لورثة مملكة داود حتى لو غابوا عنها السنين الكثيرة.

بناء على هذه المقولة فإن المعتدي بداية هو من يتحدى الحق التاريخي، فمن يتحدى الحق يمارس العدوان ويكون البادئ في الحرب والصراع. فالعرب أخطأوا عندما أنكروا حق إسرائيل في الوجود على أرض فلسطين. عودتهم إلى الأرض المقدسة عبارة عن حق إلهي لم يقبل به العرب فكانت النتيجة سفك الدماء والويلات والمعاناة. ولم يتوقف العرب عند مسألة التحدي للإرادة الإلهية، بل تجاوزوها ليتحدوا الشرعية الدولية أيضاً. فإسرائيل تستند على تصريح بلفور والتأييد الذي واكبه في عصبة الأمم عام 1922م.

واستمر العرب في موقفهم المعادي، على حد مقولة الصهيونية وإسرائيل، ليشمل رفض قرار الأمم المتحدة الخاص بتقسيم فلسطين عام 1947. اكتسب حق إسرائيل في الوجود حينئذ شرعية دولية لم يقبل بها العرب، وشنّوا بدلاً من ذلك حرباً على إسرائيل عشية الإعلان عن قيامها. قام العرب بذلك في الوقت الذي كانت الصهيونية، وإسرائيل فيما بعد، تمدان يد السلام والتعاون. على الرغم من هزيمة العرب عام 1948 إلا أنهم لم يقبلوا الهزيمة واستمروا في موقفهم المعادي لإسرائيل رافضين لحقها في الوجود وليد السلام الممدودة. فكانت حرب عام 1956 التي فجّرها عبد الناصر، حسب الدعاية والمواقف الإسرائيلية، وذلك بتأميمه لقناة السويس التي من المفروض أن تكون ممراً مائياً آمناً مفتوحاً أمام جميع الدول. ثم تطورت أعمال الدعاية ضد إسرائيل بهدف اجتثاثها.
هذا الموقف العربي صحيح ايضاً بالنسبة للفلسطينيين الذين صمموا على أن البلاد بلادهم وأن اليهود عبارة عن غزاة آثمين. رفض الفلسطينيون كل الطروحات السلمية وتحّدوا قرار التقسيم فوقعوا في أحزان وآلام نتيجة غباء قياداتهم وتطرفها ورغبتها في العدوان على اليهود والنيل منهم. لم تعجبهم الطروحات المتعددة والكثيرة لتحقيق السلام فذاقوا المرّ والعذاب. أضاع الفلسطينيون الفرص وأهدروا الطاقات، وكان من الممكن أن تكون طريقهم أسهل وأقصر فيما لو قالوا "نعم" للحلول التي طرحت عليهم.

لم يكتف العرب والفلسطينيون بالرفض وإنما جندوا الطاقات والجيوش لمحاربة إسرائيل. جهز العرب الجيوش ورفعوا شعار تحرير فلسطين، وأقام الفلسطينيون التنظيمات لخوض حرب عصابات ضد إسرائيل. وكانت النتيجة هزائم متكررة للعرب وعلى الأخص في أعوام 1967، 1973، و 1982. ومع كل الهزائم لم يصغ العرب لصوت العقل ولم يتريثوا في التفكير، بل أخذتهم العزة بالإثم. حتى أنهم حاربوا الرئيس العاقل الوحيد وهو محمد أنور السادات. فقد كان السادات حكيماً وأدرك مصالح بلاده وكيفية تحقيقها، واكتشف الأخطاء التي وقعت فيها مصر عندما حاربت إسرائيل، فاستدرك الأمر وعقد اتفاقية صلح وخرج من دائرة الصراع.

أما الآن وقد وافق العرب على المشروع الصهيوني وجلسوا على طاولة المفاوضات الثنائية والمباشرة مع إسرائيل، فقد ثبت أن العرب قد أيقنوا خطأهم. وهذا ما يردده العرب أنفسهم. فكثير من العرب خاصة المؤيدين للخطوات العربية تجاه إسرائيل يبررون مواقفهم على أن الرفض وتحدي الصهيونية والغرب لم يجديا نفعاً ولم

يعد أمامهم إلا قول نعم، أو الموافقة على ما تطرحه إسرائيل والدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة. وفي المقابل ثبتت إسرائيل على موقفها وانتزعت الاعتراف من العرب مع الموافقة على تطبيع العلاقات على مختلف الصعد.

فمن الذي يتحمل مسؤولية سفك الدماء والدمار والأحزان؟ بالتأكيد هو الطرف الذي رفض أن يقبل في السابق ما قبل به الآن، وهو العرب. فحسب التحليل الإسرائيلي والصهيوني والغربي، لو عقل العرب وفهموا واستوعبوا ما جرى لهم لتم اختصار سنين طويلة من الصراع واستغلالها فيما هو نافع للمنطقة وشعوبها. وهذا بالتالي يعني أن المعتدي ليس بآثم وإنما يقع الإثم على المعتدى عليه، وإثمه في أنه اختار المقاومة، وعليه الآن أن يكفر عما جرى. والتكفير يشمل قلب كل المفاهيم السابقة نظرياً وعملياً واستدراك كل الأخطاء وصناعة بدائلها.

## قلب التاريخ

قام رفض العرب للمشروع الصهيوني على عدد من الأسس والمعطيات على رأسها أن فلسطين أرض عربية إسلامية وهي ملك لأصحابها الشرعيين وهم الفلسطينيون. فهذه أرض مقدسة شرفها الرسول عليه الصلاة والسلام وحافظ العرب والمسلمون على قدسيتها عبر الزمن، ونزفت دماؤهم على أرضها دفاعاً عنها وعن الحق. والمشروع الصهيوني عبارة عن عدوان استعماري يقيم جسداً غريباً في قلب الوطن العربي، ويشكل سهماً استعمارياً متقدماً لضمان الهيمنة الاستعمارية الغربية على العرب والمسلمين. استغل الغرب ضعف العرب وطردوا الفلسطينيين ليحل محلهم يهود تم تهجيرهم إليها من مختلف بقاع الأرض.

"السلام" مع إسرائيل ينسف كل المعطيات التاريخية والدينية والسياسية التي استند عليها العرب في عزمهم على تحرير فلسطين. صحيح أن القادة العرب الذين اختاروا القبول بما رفضوه علناً عبر سنين، إلا أنه مطلوب منهم إدارة عقارب الساعة إلى الوراء وإعادة صياغة التاريخ. فالسلام ليس مجرد عدم الاقتتال وإنما عبارة عن تطبيع يقوم أولاً على القبول بإسرائيل كجزء لا يتجزأ من المنطقة. وعليه فإن فلسطين لم تعد فلسطين وإنما هي إسرائيل. أو كما وصفها الملك حسين إنها فلسطين سابقاً.

مراجعة التاريخ وتعديله عبارة عن أساس تطبيعي حيوي. فإسرائيل لن تقبل التمسك بعروبة وإسلامية فلسطين لأن في ذلك تحريضاً تربوياً للأجيال ومن شأنه أن يبقي على قناعات لدى الأجيال قد تخلق المشاكل المستقبلية لإسرائيل. وعليه فإن فتح عمر بن الخطاب للقدس لن يكون موضوع تعميق الانتماء للأرض والمحافظة عليها، وإن سيصبح مجرد حدث تاريخي كغيره من الأحداث التي لا تثير الشجون ولا تثير الهمم. أما تمجيد صلاح الدين سواء من خلال الكتب أو وسائل الإعلام المختلفة فيجب أن يختفي ليتحول إلى مجرد صراع بين القوى

المختلفة حينئذ. أما الظاهر بيبرس فيجب أن يتحول إلى بطل صد هجوماً عن مصر لا مدافعاً عن شرف الأمة وقدسية الأرض.

مراجعة التاريخ تعني أن تعطى إسرائيل حقها في التاريخ كما تراه هي. علينا أن نتذكر أن العبرانيين أقاموا في هذه البلاد التي وعدهم الله بها، وأنهم أصحاب حضارة وجذور مشروعة في هذه البلاد يمكن الاستناد عليها في تبرير ما يمكن أن يسمى "تحرير إسرائيل". حقب واسعة وكبيرة من التاريخ يجب أن يمرّ عليها مر الكرام، بينما يتوجب التركيز على مراحل أخرى ترى إسرائيل أنها التاريخ الحقيقي. بمعنى آخر، التطبيع يعني حتمية نزع العربي عن تاريخه المتعلق بفلسطين، وقلب الحقائق التاريخية التي من شأنها فصل العربي تماماً عن أرض فلسطين وإنهاء تمسكه بها كأرض عربية إسلامية.

قد يجادل العرب السائرون في ركب التطبيع أن هذا لن يحصل، وأنهم سيستمرون بتعبئة الأجيال بالحقائق التاريخية حتى لا تنسى البلاد. الأمور في تغيّر مستمر، والأوضاع قد تتحول لصالح العرب فتكون الأجيال مهيأة لفعل إيجابي تجاه فلسطين. لكن هذه تبقى نوايا طيبة من الصعب لها أن تتحقق. فإسرائيل تريد اجتثاث الكراهية لها وهي ستحارب كل ظاهرة من شأنها أن تخلق عقلية العداء لها ولوجودها، وهي لن تتهاون مع النوايا الطيبة وستعتبرها، في حال تنفيذها، أعمالاً عدوانية مناقضة لروح السلام وحق شعوب المنطقة في الوجود الآمن والتعاون المتبادل. وسيجد من وقع اتفاقيات الصلح مع إسرائيل أن هناك تبعات كثيرة عليه أن ينفذها وإلا سيحيق به الغضب الإسرائيلي. وما دام العربي الموقع على معاهدة الصلح قد وقّع بناء على رؤيته للواقع المرير، فهو سيقبل قلب الحقائق التاريخية أيضاً بناء على ذات التبرير.

## قلب المفاهيم الدينية

هناك مفاهيم دينية تتناقض تماماً مع معاهدات الصلح مع إسرائيل وتطبيع العلاقات معها. على رأس هذه المفاهيم تقوم قدسية الأرض واعتبارها وقفاً إسلامياً لا يجوز لأحد التصرف بها أو نزع إسلاميتها عنها. التنازل عن أرض الوقف الإسلامي حرام شرعاً ولا يملك أحد تخويلاً بالتنازل عنها. فضلاً عن ذلك، القدس هي مسرى رسول الله عليه السلام، وهي مدينة المسيح عليه السلام، ولا يجوز للمسلمين أن يتنازلوا عن أرض الأنبياء وآثارهم لأنهم يعتبرون أنفسهم ورثة الأنبياء. هذا علماً أن القرآن الكريم يعتبر اليهود أشد الناس عداوة للمسلمين ويصفهم بالإفساد ويلعنهم. أما الإنجيل فيصف اليهود بأولاد الأفاعي ويعنفهم ويرفض أن يكونوا ورثة إبراهيم عليه السلام لأنهم لا يعملون كما كان يعمل.

هذا المنطق الديني لا يتمشى مع التطبيع، ومن المفروض ليّ المفاهيم الدينية بطريقة لا تسيء إلى العلاقات "الطيبة" بين إسرائيل والعرب. فمثلاً يجب تصوير الصلح مع إسرائيل كصلح الحديبية الذي تختلف حيثياته

وظروفه وشروطه. ومن الممكن تفسير الآيات القرآنية بطريقة تتلاءم مع الظرف واستخدام الآية "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله" كمخرج ومبرر للسلام والعلاقات الطيبة. أما غداً فسنجد بعض رجال دين السلطة يبررون أفضلية إسرائيل على الأمم بناء على نصوص قرآنية يفسرونها حسب أهوائهم. أما الآيات التي يصعب ليّ تفسيرها فإنهم سيتجاهلونها.

أما المطبعون من المسيحيين فلن يركزوا على ما أتى به الإنجيل من وصف لليهود، وسيتجاهلون ما هم مقتنعون به حول قتل اليهود للمسيح، وسيركزون على أرض الميعاد ونبوءات التوراة حول إقامة إسرائيل في البلاد. وإجمالاً، حسب قواعد التطبيع، من المتوقع أن يقلب رجال دين السلطة مفاهيم دينية ليخلقوا قناعات جديدة تتساوق مع ادعاء إسرائيل بوعود إلهية وباختيار الله لهم كشعبه الوحيد من دون الشعوب.
هذا ليس مجرد توقعات، بل هو ما يحصل على الأرض. فهناك رجال دين من مصر ومن فلسطين والأردن أفتوا بشرعية عقد الصلح مع إسرائيل مستندين في ذلك على آيات من القرآن الكريم متجاوزين قدسية الأرض وتحريم التنازل عنها. أما الملك حسين فقد أدخل اليهود في قائمة المؤمنين عندما قال في خطابه في 1994/11/15 أن السلام المعقود مع إسرائيل سيكون سلاماً تنعم به الأجيال من العباد المؤمنين من نسل إبراهيم، ويؤدي إلى علاقات الأخوة بين المؤمنين الذين جعل الله لهم القدس محج أنظارهم جميعاً. أما وكالة الغوث وتشغيل اللاجئين/ دائرة التربية والتعليم فكانت سباقة في التعميم على المدارس بتجاهل بعض الآيات في الكتب المدرسية أو ذكرها، وهي الآيات المتعلقة ببني إسرائيل.حسب قواعد التطبيع، اليهود ليسوا قتلة الأنبياء وإنما هم أخوة الإيمان. إنهم ليسوا معتدين وإنما وجودهم هنا يحقق الإرادة الإلهية وتنبؤات بني إسرائيل. وهم لا يميزون أنفسهم عن باقي البشر وإنما يرغبون في العيش بسلام على قدم المساواة مع الآخرين. أما تآمرهم على الرسول عليه السلام وعلى المسلمين فسيتم تجاهله وإزالته إن أمكن.

لا أبالغ بناء على فهمي للعقلية الصهيونية اليهودية عندما أقول أن إسرائيل راغبة في الضغط من أجل تعديل القرآن. ولا أبالغ، بناء على فهمي لعقلية الحكام العرب، عندما أقول أن بعض هؤلاء الحكام سيفعل ذلك لو استطاع. أنى لهم ذلك وقد تعّهد الله بحفظ القرآن. لكن إسرائيل ستكتفي بتجاوز بعض الآيات وعدم ذكرها، والحكام المطبّعون سيلبون طلبها. فإذا شاء العرب (المطبّعون منهم) أن تسير علاقاتهم مع إسرائيل بطريقة سلسلة فإنهم لن يستطيعوا تجاوز العمل على تغيير المفاهيم الدينية بحيث يفصلون الإنسان العربي عن امتداده الديني وفهمه السليم لآيات القرآن فيما يخص اليهود. بغض النظر عن النوايا، مطلوب منهم التقيّد بقواعد السلام ونصوص الإتفاقات، وإلا فإن الأمور لن تسير بالطريقة التي يرغبونها.

## قلب المفاهيم القومية

عدد من العرب ما زالوا يؤمنون بضرورة الوحدة العربية بناء على قناعات عديدة. حتى أن بعض الأنظمة والقيادات التي توصلت لصلح مع إسرائيل تتحدث عن وحدة العرب والتضامن العربي. وقد أصر العرب على

مدى سنين على ضرورة إيجاد حل شامل للقضية الفلسطينية بين العرب كوحدة واحدة وبين إسرائيل. وقد استخدمت مقولة الإنفراد بالحل مع إسرائيل كأحد مبررات الوقوف ضد اتفاقيتي كامب ديفيد وضد موقعها الرئيس السادات. وفي المقابل أصرت إسرائيل على أن الحل للمشكلة ممكن فقط من خلال مفاوضات ثنائية مباشرة، ولم تقبل أبداً مفاوضة العرب كوحدة واحدة. فقط أذنت إسرائيل بوفد أردني ــ فلسطيني مشترك بسبب رفضها الإعتراف بمنظمة التحرير، ولم تقبل الفصل إلا بعدما أصبحت منظمة التحرير منظمة أخرى غير منظمة تحرير وتنازلت عن كل طروحاتها للتحرير.

قبل العرب في النهاية بالشروط الإسرائيلية وكان ذهابهم إلى مدريد بمثابة الاعتراف النهائي باتفاقية سايكس ــ بيكو وشرعية الهجرة الصهيونية إلى فلسطين وتهويد البلاد. فماذا عن الوحدة طريق العودة، والعودة طريق الوحدة. القيم الإنفصالية والإقليمية أصبحت راسخة وتمأسست، وتراجعت قيم الوحدة والوطن الكبير الى أدنى مستوياتها. وأصبحت الدول العربية تترقب خطوات بعضها البعض لتتحسس طريقها نحو إقامة العلاقات مع إسرائيل. ولم تعد مسألة التفاوض مع إسرائيل مسألة خلاف ونفور بين الأنظمة العربية، بل أصبح التنافس على المفاوضات هو موضوع الخلاف. أما أصحاب الطروحات الوحدوية المتتالية، وهم الفلسطينيون، فقد سبقوا الدول العربية واختاروا طريقهم الانفرادي قبل غيرهم. وتحولت المقولة من عمل عربي مشترك الى "من سيكون فلسطينياً أكثر من الفلسطينيين".

مع هذا التنافس والتسابق أهملت شعارات كثيرة دخلت في حقب سابقة إلى عمق النفس العربية. مثل الأمة العظيمة التي لا تصبر على ضيم، وحدة الشام ومصر مفتاح نصر العرب، أرض الحجاز أرض الأباة والصحابة الأبرار، الهزيمة ليست من شيم العرب، الخ. ثبت أن العرب، على أرض الواقع، عكس ذلك. إنهم يقبلون بالهزيمة ويستسلمون ويتجاوزون دماء شهدائهم وشعاراتهم والتغني بأمجاد أجدادهم، بما يعني ذلك من انعكاس على النفسية العربية لتتأصل فيها الهزيمة والخنوع. الشعارات لم تكن إلا لغواً، والتمجيد لم يكن إلا هذاراً، والوعودات لم تكن إلا كذباً، والوعيد لم يكن إلا بطولة جوفاء، والأسود لم تكن إلا عظاماً خاوية لا تقوى على زئير ولا تؤذي قدماً عارية.

## المناهج التربوية

حتى تكتمل الحلقة ويصبح التطبيع مقنعاً لإسرائيل فإنه لا بد من ترسيخ القيم الجديدة لدى الأطفال. فالمقصود في التطبيع وقبول إسرائيل كصاحب حق في البلاد ليس فقط مجرد تجاهل الكبار لقناعاتهم أو الدوس عليها بل خلق جيل جديد مفصول عن تاريخه وحضارته وانتصارات أجداده. التطبيع ليس مجرد استدخال الهزيمة في عقول المعاصرين، وإنما صنع جيل مهزوم تماماً بدون سند تاريخي أو ديني أو حضاري. التطبيع بالنسبة لإسرائيل هو اتباع سياسة مشابهة لسياستها حيال المواطنين في فلسطين المحتلة عام 1948. سياستها هي

تجريد العربي من هويته وعنوانه وماضيه ومساهماته الحضارية وطموحاته نحو البناء وقهر التحديات ومواجهة الأعداء والتخلي عن أسس امتلاك الذات والتسليم للقوى المحيطة به ووضع مقدراته وطاقاته في خدمتها.

ولهذا لا مفر أمام العرب، وحتى تكون إسرائيل مقتنعة بنواياهم، إلا زرع مقومات الهزيمة في ذهن العربي لتكون هي الحياة الاعتيادية. ولن يتأتى ذلك إلا من خلال تبني البرامج التي تؤدي إلى النتيجة. أولى هذه البرامج تتعلق بالمناهج المدرسية خاصة في مادتي الدين والتاريخ لأنهما مادتان أساسيتان في خلق الوعي العربي بإسلامه وتراثه وسيرة أجداده. فبالنسبة للدين سيكون هناك تركيز أكبر على أسس كهنوتية تركز على عبادات شعائرية دون العمل العام، وسيتم تجاوز الآيات التي تتحدث عن بني إسرائيل وسوء صنيعهم وغضب الرب عليهم. وستدخل إلى المناهج قيم جديدة من التسامح الديني والمحبة التي تضع اليهود في قائمة الأخوة والمؤمنين الموحدين المحبين للسلام والوئام والتعايش مع الشعوب الأخرى.

أما بالنسبة للتاريخ فلا بد من إحداث تعديلات على المناهج، وسيصبح لإسرائيل مكان في المناهج مخصص للحديث عن قيامها ومحاولات اليهود للّم الشمل والعودة إلى الأرض المقدسة. وسيتوقف الحديث عن اغتصاب فلسطين وطرد الفلسطينيين وتشريدهم وستتحول مشكلتهم إلى قضية إنسانية يؤسف لحدوثها. وكذلك بالنسبة للجغرافيا التي ستجعل جبل يونس الحلحولي أعلى جبال فلسطين ومن حيفا عروس البحر الإسرائيلية.

أما البحث عن سبل العودة فسيختفي لصالح الحديث عن جهود تعويض اللاجئين وتحسين ظروفهم المعيشية. وسيختفي اسم فلسطين عن الخرائط العربية التطبيعية لتحل محلها إسرائيل.
ربما لن تضغط إسرائيل ليتم هذا دفعة واحدة وبسرعة، وإنما ستقبل بخطوات تدريجية تؤدي إلى ما تريد وما تعتقد أنه السياسة السليمة.

سيمتد المنهاج التربوي إلى وسائل الإعلام والندوات والمحاضرات العامة والأشخاص والجمعيات. مطلوب من وسائل الإعلام أن تدعم خطوات "السلام والتعايش والعهد الجديد"، وأن تمتنع عن التحريض وتتحلى بروح التسامح والتأثير في عقول الناس. من المتوقع أن يساهم التلفاز العربي في خلق عربي جديد لا يستجيب للتحديات بل يخضع لها، ولا يثأر لهزائمه بل يعتبرها نتاج أخطاء وعناد أحمق. وكذلك على الصحف والمجلات أن تفعل. أما صيغ التحريض ضد إسرائيل والغرب واستنزاف الطاقات العربية فيجب أن تحظر، وسيطلب من العرب إتباع السياسات الكفيلة بمنع ذلك، وسن القوانين التي تعاقب المحرضين.

هذا ليس وهماً ولا خيالاً. فقد عملت إسرائيل على لجم الصحافة المصرية ومختلف وسائل إعلام مصر. ومع كل محاولة تحريضية كانت حكومة مصر تتعرض لضغوطات إسرائيلية وأمريكية من أجل الالتزام بنصوص كامب ديفيد وروحها. حتى إن إسرائيل احتجت لدى مصر لأن الأزهر اعتبر الشهيد الجوهري الذي نفذّ عملية

إستشهادية في القدس شهيداً. أما الملك حسين فقد أخذ يتحدث عما أسماه الإرهاب الإسلامي والإرهابيين الذين يقوضون عملية السلام برعونة واستهتار. ناهيك عن المسؤولين الفلسطينيين الذين يتنكرون لتاريخ الشعب ونضالاته ويسمون النضال والجهاد إرهاباً، وبعضهم قام بإطلاق النار على الشعب تحت الضغوط الإسرائيلية وتنفيذاً للاتفاق مع إسرائيل. والعمل الأبرز هو الاستمرار في اعتقال المناضلين من مختلف الفصائل الفلسطينية بخاصة من التيار الإسلامي. هكذا نصت الاتفاقيات وهكذا هي متطلبات إسرائيل الأمنية.

وعلينا ألا نتسرع في الحكم على أن هذه استنتاجات تطبيعية متسرعة وبعيدة الخيال. لدينا مثال على ذلك في فلسطين عام 1948. من كان يصدق قبل ثلاثين سنة أن قادة العرب هناك سيتسابقون على وصف إسرائيل بأنها دولتهم وانهم يؤيدون إقامة السلام مع العرب، أو يتهافتون على إدانة المجاهدين والمناضلين الفلسطينيين، أو أن يكونوا وسطاء بين إسرائيل والعرب، الخ. لكن هذا كله وغيره يتم الآن في وضح النهار وبدون تردد وبدون تساؤل من قبل كثير من الناس. لقد أفلحت سياسة غسيل الدماغ الإسرائيلية وأفلحت برامجها في خلق عقل عربي جديد مليء بالهزيمة لا يقوى على الخروج من نطاقها، ومزقت العربي بحيث أنه يتحدث عن هويته الإسرائيلية ببساطة وجرأة ودون خجل أو وجل. كان هذا نتيجة البرمجة المتعمدة والمدروسة من قبل الإسرائيليين.

ألن تفلح إسرائيل في البلاد العربية؟ ما دام القادة العرب قد وقعّوا على معاهدات صلح وتخلّوا عن شعاراتهم وقناعاتهم وكتاباتهم وتصريحاتهم، فهم قبلوا بشروط إسرائيل وبما يترتب على ذلك من تبعات تعليمية وتربوية واقتصادية ونفسية. والبرنامج الآن لن تطبقه إسرائيل مباشرة بل سيطبقه العرب بأنفسهم. وهذا أخطر مما عملته إسرائيل في فلسطين المحتلة عام 1948. ففي عام 1948 يدرك العربي أن لا حول له ولا قوة ولم يجد قوة عربية تسانده أو ترفع من معنوياته، وإذا لاحت له فرصة للخروج من المأزق فإنه سرعان ما يخرج. أما في مناطق الحكم الذاتي والدول العربية فعلى العربي أن يلبس القيم الجديدة تحت شعارات وطنية وتبريرات دينية. سيزين المسؤولون العرب هزائمهم واستسلامهم بالجميل من الكلام وسيصورونها على أنها إنجازات عظيمة لقادة ملهمين وحكماء كما جرت العادة على ذلك أمام كل حدث. وبما أن السلام شامل لكل المجالات فإن إسرائيل ستطلب من العرب إثبات المزيد من النوايا الحسنة ومنها سن قوانين لمعاقبة المعارضين لعملية السلام والمحرضين ضد إسرائيل. سيصبح من الصعب مستقبلاً عقد ندوات أو محاضرات تتحدث عن الغزو الصهيوني والعدوان الغربي على المنطقة والشعب، أو تبرز سوء تعامل اليهود مع المسلمين وتآمرهم على وحدة العرب والأمة المسلمين. ومن المعروف الآن أن الأردن وسلطة الحكم الذاتي تعتقلان المناضلين والمجاهدين. وليس مستبعداً أن يوسعا نطاق الملاحقة ليشمل قول الحقيقة.

## الوعودات الاقتصادية

لكي تكتمل حلقات طمس الحقائق وخلق أوضاع مناسبة لأمن إسرائيل وتوسعها وبسط هيمنتها على المنطقة، تقوم حملة واسعة من الوعودات بالثراء والرفاء والبحبوحة الاقتصادية. فلا يكفي إجبار الناس على التنكر لأنفسهم وإلغاء ذاتهم وإنما من المهم تقديم الحوافز لذلك. يقف الحديث عن التطوير الاقتصادي على رأس هذه الحوافز لما فيه من قدرة على لفت الأنظار وإثارة الاهتمام . وقد جرّب بريق تحسين ظروف المعيشة في مصر لتزيين اتفاقات كامب ديفيد وأتى أكله في حين إلى حد كبير. وعد رئيس مصر شعبه بالنعيم والخروج من مأزق الفقر، وعاونته في ذلك الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة، حتى ظن شعب مصر أن الصلح مع إسرائيل عبارة عن مفتاح لحل كل مشاكله.

المقولة السائدة حول الاقتصاد تضع اللوم على العرب لأنهم استنزفوا طاقاتهم في بناء الجيوش وشراء الأسلحة دون أن يجنوا غير الهزائم. وكان من الممكن استخدام هذه الطاقات للبناء ورفاهية الشعوب. فالمشكلة الاقتصادية في الوطن العربي ليست ناجمة عن العدوان الصهيوني الغربي على البلاد، ولا عن سيطرة الولايات المتحدة على الثروات العربية وإنما عن غباء العرب. أما الآن وقد عاد العرب إلى جادة الصواب فإنهم سيحققون مكاسب اقتصادية بطرق مختلفة منها توفير الأموال التي كانت تهدر على السلاح، الحصول على مساعدات مالية من الدول الأوروبية والأمريكية، والحصول على مساندة تقنية وعلمية من إسرائيل والغرب.

القادة العرب هم من أشد المتحمسين لفكرة الدعم الاقتصادي، ويجعلونها محور حديثهم في تجميل الحلول السلمية. وهم يحذرون باستمرار من انقطاع الدعم أو عدم كفايته لأن في ذلك تقوية للمعارضة وهزيمة "لدعاة السلام". وهم بذلك إنما يخاطبون جيوب الناس وبطونهم لا عقولهم وضمائرهم.

الخطورة الكبيرة في الحملة الدعائية الثرائية تكمن في غرس قيم الاستهلاك ووضع القيم المادية في أعلى سلم أولويات الإنسان. إنها تهدف إلى تقزيم الطاقة العقلية للإنسان وتقليص قيم الانتماء والولاء لصالح الاهتمامات المادية الشخصية. إنها تخاطب الجزء الحيواني في الإنسان ليتغذى على حساب الجزء الإنساني العقلاني الذي يجعل للإنسان معنى ومحتوى، وذلك من أجل تحويله إلى مجرد أداة يمكن استخدامها والسيطرة عليها. الإنسان المفكر خطر على العدوان والاستغلال والظلم لأنه متمرد من اجل الخير والحرية والعطاء، أما الإنسان المستهلك لا يختلف كثيراً عن الحيوان إلا في تفننه في أساليب الاستهلاك. الإنسان المستهلك خطر فقط إذا جاع، وربما يكون خطراً إذا شبع كثيراً. لا توجد لديه قيم سوى الإشباع المادي وما دام يرتع في همومه المادية التي لا حلّ لها فإنه سيبقى متلهياً بها وغير عابئ بعزّة أو كرامة أو حرية وطنية، الخ.

فضلاً عن عملية تفريغ الإنسان من محتواه يستعمل القادة العرب والفلسطينيون أسلوب الرشوة أو الإلهاء المادي لنيل موافقة الناس على سياساتهم والصلح مع إسرائيل. فالقادة العرب، وعلى رأسهم القادة الفلسطينيون، يكررون باستمرار استجداءاتهم المالية من الدول الغربية حتى يشعر الشعب أن السلام قد أتى

عليه بفائدة. يريد الفرد، حسب رأيهم أن يشعر أنه قد جنى شيئاً مقابل الخطوات السياسية التي تم اتخاذها. أي أنه قد دفع ثمناُ سياسياً يريد مقابله مكافأة مادية.

وفي المقابل، يحذر القادة العرب من أن قلة الدعم المالي ستؤدي إلى انهيار العملية السلمية حيث أن الشعب سيشعر بأن ما قدّمه لم يأت له بشيء، عندئذ يفقد القادة تأييدهم وتفقد المسيرة السلمية رونقها وشعبيتها. ولهذا يستمر القادة العرب في ضغوطاتهم الإعلامية على الدول الغربية من أجل تقديم المال الكافي لدعم المسيرة وجعل الصلح مع إسرائيل صلحاً حقيقياً تستفيد منه كل شعوب المنطقة. هذا أسلوب غير إنساني ويتعامل مع العنصر المادي في الإنسان من أجل السيطرة على قواه العقلية ومشاعره الانتمائية. إنها محاولة تعود إلى عصور الظلام والقهر لأنها تعمل على قمع القوة الذهنية والانتمائية لدى الإنسان من خلال الشراء المالي أو الرشوة. الرشوة محرّمة في كل الأنظمة والقوانين ويعاقب عليها القانون، إلا أن قادة العرب يمارسونها في وضح النهار وأمام وسائل الإعلام وبصورة جماعية ضد شعوب بأكملها.

والهدف يبقى تحويل الإنسان العربي والفلسطيني عن ذاته وجعله سلعة يمكن الاتجار بحقوقها ومشاعرها وعواطفها. تربية الإنسان على الإخلاص والشجاعة والإصرار على الحق تلحق الضرر بالمشروع الصهيوني ــ الاستعماري لأن في ذلك دعماً للإنسان وامتلاكه لذاته وإدراكه لحقوقه وطاقاته على تحصيل هذه الحقوق. أما الإلهاء المادي والوعودات البراقة في الرخاء والرفاء فتحول الإنسان عن أهدافه وتجعله أداة بيد الغير الذي يملك المال. وعليه فإن الوعودات الاقتصادية تلعب دور الدعامة لوسائل نزع الذات العربية. فبالإضافة إلى تغييب التاريخ والعمل على قتل القناعات الحضارية والدينية لدى العربي، فإن المال يشكل عاملاً مساعداً لإكمال حلقة الخناق على الذات والشخصية العربية الإسلامية.

## التطبيع الإعلامي

تزداد وتيرة استضافة صهاينة في وسائل الإعلام العربية بخاصة الخليجية منها، وبالتحديد في الفضائيات. تكثفت الاتصالات الإعلامية مع صهاينة من سياسيين واختصاصيين حتى أصبح من المألوف أن يرى المشاهد العربي معلقا أو محللا سياسيا صهيونيا على الشاشة العربية أو صانع قرار صهيوني أو متحزب، الخ. لقد تم كسر تلك الحواجز التي أبقت الصهاينة بعيدين عن وسائل إعلامنا، وتطورت عند بعضنا اتجاهات جعلت من المحرمات سابقا حلالا ومرغوبا فيها حاليا ودفعت نحو إزالة كل العوائق والتبريرات. وبعد أن كان الظهور الإعلامي باتجاه واحد، أي استضافة وسائل الإعلام الصهيونية لعرب وفلسطينيين، أضحى الآن باتجاهين.

تواجه وسائل الإعلام العربية المضيافة انتقادات من قبل الرافضين للتطبيع سواء على مستوى الأشخاص أو لجان مقاومة التطبيع. يستند الانتقاد إلى أن هذه الوسائل أدخلت الصهاينة المعتدين إلى البيت العربي وأعطتهم فرص مخاطبة الناس وإقناعهم بما يطرحون وبكيفية تحليلهم للأوضاع والتطورات وبنظرتهم نحو المستقبل والعلاقات مع العرب كأمة وكحكومات. صنع الصهاينة من خلال عدوانهم المستمر على الأمة العربية وأطماعهم الجغرافية والاقتصادية صورة قاتمة لأنفسهم حتى باتوا متساوين مع الشياطين التي لا تكف عن إلحاق الأذى بالآخرين والتضليل، وتأتي وسائل الإعلام لتظهرهم على أنهم بشر كما العرب وأن لهم متطلبات أمنية ومعيشية كباقي الأمم والشعوب مؤثرة بذلك بدرجة كبيرة على الصورة التي صنعها الصهاينة لأنفسهم وبأيديهم. فلماذا هذا التطوع الذي لا مبرر له في تقديم الصهاينة لأبناء الأمة بثوب من الكلام الجميل وبصورة الإنسان المتحضر الذي يتحدث بالعقل والمنطق ويراعي متطلباته الإنسانية.

أما وسائل الإعلام فتبرر ما تقوم به على أنه خطوة متطورة نحو تثقيف العرب حول منطق الصهاينة وطرقهم في فهم الأمور وتبريرها. إنها، حسب قولها، تأتي بالصهيوني إلى العربي لكي يخاطبه مما يجعل العربي أكثر قدرة على استيعاب الأوضاع وفهم العقلية الصهيونية وأساليبها في الدعاية والإقناع. لقد استمع العربي عبر السنوات إلى ما يقوله العرب وارتسمت في ذهنه صورة من خلال وسائل الإعلام العربية ممزوجة بواقع ودعاية سياسية قد لا تكون دقيقة، ولماذا لا تتاح له فرصة تكوين صورة من خلال ما يلمسه مباشرة من الصهاينة؟ أي أنها تقول أنها لا تقوم بدور تطبيعي وإنما بدور إعلامي مهني وتثقيفي مع الإلتزام بحاجة العربي إلى معرفة عدوه بصورة مباشرة.

فأين المنطق العلمي بين جدليتي الطرفين؟

## وسائل الإعلام والتطبيع

ربما تذكر وسائل الإعلام العربية إصرار الولايات المتحدة في إحدى مراحل المفاوضات على وزير الخارجية السوري فاروق الشرع أن يظهر على التلفاز الصهيوني في مقابلة خاصة معه. وقد نقلت وسائل الإعلام العالمية الحدث عندما حصل على اعتبار أنه خطوة هامة نحو قبول الآخر والإقبال على التعامل معه على أسس اعتيادية غير عدوانية. لقد اعتبرت المقابلة على أنها خطوة تطبيعية هامة على اعتبار أن العرب يدخلون بيوت اليهود هذه المرة مما يمهد الطريق لدخول اليهود بيوت العرب في المرة التالية. وبمثل هذه الخطوة التي قد يعتبرها البعض بسيطة ابتدأت إسرائيل أحد محاولاتها التطبيعية مع الفلسطينيين. فتحت إسرائيل وسائل إعلامها أمام الفلسطينيين وركزت على بعضهم لأسباب عدة منها أنها رغبت في تهذيب النفوس فيما يتعلق بمشاعرها تجاه اليهود الصهاينة وقبولهم على أنهم بشر لا يختلفون عن غيرهم من بني البشر وأنه من الممكن فتح قنوات اتصال وتفاهم معهم، ومنها أنها رغبت في صنع قيادات من الممكن أن تقبل بالمصالحة والأمر الواقع.لا شك أنها نجحت في ذلك خاصة أن الاحتكار الإعلامي ما -قبل -الفضائيات قد هيأ الأجواء لإبراز أناس على حساب المصلحة الوطنية الفلسطينية.

تطور تطويع النفوس لقبول وسائل الإعلام الصهيونية ليشمل فصائل معارضة. دأب راديو إسرائيل مثلا على القيام باتصالات هاتفية مع قيادات فلسطينية داخل فلسطين وخارجها، وأما التلفاز الصهيوني فلا ينفك يجري لقاءات متنوعة مع فلسطينيين ينتمون لفصائل مختلفة والذين يدعون في ذات الوقت إلى مقاومة التطبيع. لقد دخلنا بيوتهم من خلال وسائل إعلامهم، لكن ذلك فتح الباب لدخول بيوتنا من خلال نشاطات تطبيعية متعددة مثل اللقاءات الاجتماعية أو اللقاءات السياسية - الاجتماعية المهتمة بتطوير خطوات السلام واللقاءات الأكاديمية والعلمية التي وقف على رأسها أكاديميون وأساتذة جامعات مول لهم الغرب مراكز لدراسة السلام والديموقراطية والمرأة وما شابه ذلك ليجعل منهم قيادات اجتماعية وسياسية، ولقاءات بلدية وقف على رأسها رؤساء بلديات ومحافظون، ولقاءات شبابية قادها مسؤولون في فصائل فلسطينية مؤيدة للسلام.

تبدأ الأمور بخطوة بسيطة ثم تتطور وتتعمق. اعتبر الشعب الفلسطيني في بدايات الاحتلال أن الاستماع إلى وسائل الإعلام الصهيونية من المحرمات، لكن هذا التحريم اقتصر فيما بعد على إجراء اللقاءات. سقط المحرم بعد حين ليصبح مشهد الفلسطيني على شاشة القناة الإسرائيلية الأولى مألوفا ولا يثير الجدل. بل أصبح من المستهجن أن يرفض المرء إجراء المقابلة لأنه يفقد فرصة الظهور أولا ولأنه يفوت فرصة طرح وجهة نظره أمام الآخرين ثانيا. ثم تطورت الأمور إلى منافسات وتمنيات بأن تُجرى مع الشخص مقابلات. وفي المقابل كان لا بد من التبادلية مما أتاح قبول الصهاينة قبل أن يقرروا قبول عودة اللاجئين.

هنا تكمن الأبعاد التطبيعية لانفتاح وسائل الإعلام العربية أمام الصهاينة، إذ من الممكن أن تكون انعكاسات الحدث في كثير من الأحيان أهم من الحدث نفسه. فمثلا زود الأمريكيون شبابا فلسطينيين وصهاينة بتذاكر سفر لحضور نشاط شبابي في الولايات المتحدة. غلبت المشادات على اللقاءات والنقاشات بين الطرفين، لكن هذه هي سمة اللقاءات الأولى بين الأعداء. تهدأ النفوس تدريجيا ويصبح قبول الآخر متوقعا وتسود بالتالي ما يسمى بالعلاقات الحضارية. فالدعوة إلى المعسكر الشبابي قد لا تكون مهمة بحد ذاتها، لكنها ذات انعكاسات مستقبلية بعيدة المدى.

فإذا كانت قنوات التلفاز العربية قائمة على استضافة صهاينة فهل يكون محرما على المواطن العربي أن يستضيف صهيونيا؟ تُدخل الفضائيات الصهيوني إلى آلاف وربما ملايين البيوت العربية، لكن المواطن العادي يدخله إلى بيته الخاص فقط. وإذا كان للعربي أن يعتاد على لقاء الصهيوني على شاشة التلفاز فإنه سيعتاد على لقائه في أماكن أخرى مثل المطار والمؤتمر العلمي والجمعية العامة الأمم المتحدة، الخ. لا شك أن اللقاءات تلطف الأجواء بين الخصوم وتكسر المعقد من الحواجز النفسية وتجعل كل طرف أكثر تسامحا مع الآخر. والسؤال يبقى يدور حول دوافعنا للتلطيف وكسر الحواجز في الوقت الذي ما يزال العدوان الصهيوني ضد الأمة مستمرا وقاسيا.

لا أرى أنه من الحكمة ألا نفهم وجهة نظر الآخرين وألا نستمع إلى جدلياتهم ومختلف طروحاتهم الفكرية والسياسية وغير ذلك لأن معرفة الآخر تجعل التعامل معه أكثر كفاءة وسلاسة. وفي حالة العدو تجعلنا المعرفة به أكثر قدرة وفعالية في مواجهة عدوانه وإلحاق الهزيمة به. المعرفة العلمية والدقيقة بالعدو ومختلف جوانب نشاطاته وأساليبه حيوية وضرورية، ولا أرى أن العرب قد خدموا أنفسهم عندما عزفوا عن دراسة عدوهم. لكن معرفتنا بهذا العدو يمكن أن تتم بدون أن ندخل شراكه أو أن نُدخله بيوتنا. هناك كتب ومنشورات

من كل نوع حول هذا العدو وتستطيع وسائل إعلامنا أن تستعين بها في نقل الصور الدقيقة للمشاهد العربي. والمنشورات والصحائف تبقى أهم بكثير من اللقاءات الصحفية لأن الأولى تحمل الحقيقة حول البرامج والخطط والأساليب والثانية قد تعكس مواقف تكتيكية وربما كاذبة. بالطبع ليس كل ما يُكتب يعبر عن الحقيقة لكن على الأقل يمكن الاطمئنان إلى أن الأبحاث العلمية أقرب إلى تصوير الحقيقة من المقابلات الإعلامية. فضلا عن أن للعدو وسائل إعلام لا يمكن منع أحد من متابعة ما تبث ولا يوجد سبب قوي لإعطائه مساحة إعلامية إضافية في وسائلنا أو إعطاء المواطن انطباعا بأن هذا العدو يمكن أن يكون ضيفا.

يلعب سياسيون كثيرون في الوطن العربي بخواطر الجماهير ومواقفها ورؤاها من خلال خطواتهم التطبيعية السافرة وإصرارهم على الاستمرار في المفاوضات التي أدخلت الصهاينة إلى البلاد العربية، ولا أرى أنه يليق برجال الإعلام الذين من المفروض أنهم ينتمون إلى صفوف الشعب والناس العاديين أن يعزفوا على ذات الوتر. أنظمة وقيادات أدارت ظهورها للناس ومصالحهم ولتاريخ الأمة وكبريائها وفضلت أن تسير في طريق يختلف بريقه عن البريق التاريخي للأمة، ومن المتوقع أن يبقى الإعلاميون ضمن الجماهير التي انبثقوا منها وأن يعبروا عن مصالحها وطموحاتها، أو على الأقل أن يبقوا بعيدين عن جر الأمة إلى مزالق المهانة والتناقضات والتنكر للتاريخ والقيم الدينية والحضارية. وإذا كانت قيادات قد عملت على صنع أزمة ثقة مع عامة الناس فإن الاقتداء بها لا يشكل فضيلة.

هل هناك من سبب يدعونا إلى إقامة علاقات اعتيادية مع الصهاينة؟ بماذا نحتاجهم حتى نفعل ذلك؟ لكن ربما يكون هناك من يضغط علينا بهذا الخصوص فنكون قد صادقنا على علاقة المسود بالسيد. فهل يقوم إعلاميونا بدور لا يخرج عن تعريف التطبيع الوارد أعلاه؟ آمل أن يكون الجواب بالنفي.

## الخلاصة

التطبيع يعني القبول بالهزيمة قبولاً عن طيب خاطر ونية حسنة، وفتح الباب أمام العدو والقاتل ليقطف ثمار العدوان وكأنه البريء الودود، وإقامة العلاقات الحسنة والمتنامية بين العرب وإسرائيل. وحتى يكون التطبيع شاملاً ودائماً ومتصاعداً فلا بد من صنع العربي الجديد المتحلل من قيمه والمتخلي عن قناعاته، والسائر قيمياً حسب المصالح الإسرائيلية والغربية والمعادية لأمة العرب والمسلمين. نزع العربي من نفسه هي السياسة التي تلبي متطلبات التطبيع. يجب نزع العربي من جلده وتلبيسه جلداً آخر بدون هوية وبلا عنوان أو تاريخ. وحتى لا يكون اللباس الجديد منفراً فان طباعة بعض الدولارات عليه قد تكون مفيدة. هذه هي المهمة التي على القيادات السياسية تنفيذها من خلال التطبيع السياسي.